العقيدة الإسلامية (٢ ـ ٢)

إذا سألت فاسأل الله

الشيخ محمد بن عبد الله المقدي

ويستفاد من الحديث:

١ ـ انهم سألوا ربهم أن تردّ أرواحهم في أجسادهم، وهذا صرح في أنها قد فارقتنا بالموت.

٢ ـ انهم تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليقاتلوا في سبيل الله لما رأوا من عظيم ثواب الشهادة، فمُنعوا من ذلك، فقد انقطع التكليف وانقطع العمل وما بقي إلا الجزاء، فإذا لم يملكوا هم لأنفسهم نفعا ولا حياة ولا تصرفا، مع كرامتهم عند ربهم ووجاهتهم عنده؛ فكيف يملكون لغيرهم من الخلق جلب منفعة أو دفع مضرة؟!

عماد: لكن الشهداء لا يموتون.

محب: الشهداء أحياء عند ربهم، قال الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ (البقرة: ١٥٤). فهذه الحياة برزخية ليست مما نشعر بها، ولو كنا نستطيع الشعور بها لما تأسف رسول الله ﷺ على عمه حمزة الذي مات شهيدا، ولو كان حمزة يجيب المنادي لجاءه أحيانا ولسأله قضاء بعض الحاجات.

وقال تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ (الأنبياء: ٣٤)، وقال: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (الزمر: ٣٠).

فما معنى الموت هاهنا؟ وما الذي يدل عليه إذا كان لايزال يخرج من قبره ويغيث الناس؟

والله تعالى يقول: ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾ (النحل: ١٩ ـ ٢١)

وما أكثر الذين يستعملون كلام رسول الله ﷺ لأغراضهم السيئة! فهؤلاء يفترون على الله الكذب لتدوم لهم السيطرة على الناس، وهم يُضلونهم بزعمهم أن رسول الله حي وأن لهم معه لقاءات رغم الكثير من الآيات التي يُخفونها، حتى إن منهم من يدّعي في رسول الله أنه نقيب المفتشين، يراقب من حول الشيخ.

عماد: لو شاء الله أما يمنح المحضار أو الدسوقي أو الجيلاني أن يجيب المستغيث به؟

محب: الله على كل شيء قدير، ولكن لا يصلح أن يُستدل بقدرة الله على جواز مثل هذا؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يدّعي في أحد هؤلاء قدرة خاصة وكل هذه الآيات بين أيدينا؟ ونحن كلنا ورسل الله معنا عباد لله تعالى، والله ــ تعالى ــ ربنا ومليكنا، ولا يملك العبد أمام سيده شيئا، وكذلك كل الناس بين يدي الله وإن كانوا رسلا.

محب: أخي عماد !

عماد: نعم !

محب: بقي أمور لا بد لك من التنبه لها في مسألة دعاء غير الله وهي أمور لا ينفك عنها من دعا غير الله.

عماد: مثل ماذا ؟

محب: أولا: أن من يدعو غير الله من الأموات أو الأحياء لا ينفك من اعتقاد علمهم بالغيب، ولا شك أن الله جل وعلا ﴿عالم الغيب والشهادة﴾.

ثانيا: أن من يدعو غير الله من الأموات أو الأحياء الغائبين لا ينفك من اعتقاد أنهم متصرفون في الكون.

عماد: هذان والله أمران عظيمان، وإني أبرأ إلى الله من دعاء غيره!

بدا البشر والسرور على وجه محب، وقال: بارك الله فيك أخي عماد ! فهذا هو دأب باغي الحق العودة والأوبة إلى صراط الله.

في هذه الأثناء اهتزت السفينة هزة خفيفة ابتسم محب، وابتسم عماد.

واستأنف محب حديثه بقوله: وزيادة على ما ذكرته فسأبيّن لك هدي محمد ﷺ

والأنبياء من قبله في الدعاء إن مسهم الضر:

١ ـ أيوب عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ (الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤).

٢ ـ ذو النون يونس بن متى عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ (الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨).

٣ ـ يوسف بن يعقوب عليهما السلام: قال الله تعالى: ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾ (يوسف: ٣٣ ـ ٣٤).

٤ ـ زكريا بن عمران عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين﴾ (آل عمران: ٣٨ ـ ٣٩) وقوله تعالى: ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ (الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠)

٥ ـ موسى بن عمران عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ (يونس: ٨٨ ـ ٨٩).

هذا دعاء الأنبياء الذين اصطفاهم واختارهم، فهم خير البشرية ولبابها، ترى الواحد منهم إن مسه البأساء أو الضراء رفع يديه لرب الأرض والسماء يدعوه ويسأله أن يكشف ما به من ضر، فلِمَ لا نقتدي بهم؟ أخبرني يا عماد!

عماد: عن أي شيء أخبرك؟

محب: ماذا يقول من يدعو غير الله؟ أليس يقول؟:

يا حسين أغثني !

يا دسوقي اشفني !

يا بدوي انصرني !

يا شاذلي ارزقني مالا أو ولدا !

والله تعالى يقول: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ (يونس: ١٠٦)، ﴿فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين﴾ (الشعراء: ٢١٣)، ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ (القصص: ٨٨)

عماد: سبحان الله! ولكن أخبرني ما هو هدي نبينا محمد ﷺ في الدعاء؟

محب: دعنا نناقش هذا في مجلس قادم بارك الله فيك.

عاد محب إلى حجرته في السفينة وذهنه ملئ بأفكار مصطرعة ما بين تعجّب وإشفاق وفرح لصديقه.

قام إلى منضدته واستلّ قلمه، وكتب الرسالة التالية إلى عماد:

رسالة إلى عماد .. إذا سألت فاسأل الله.

رسالة صادقة أبعثها إليك.

(إذا سألت فاسأل الله).

أخي الحبيب!

إن نصح نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأمته فوق كل شبهة، وإشفاقه عليها ليس مجالا لأدنى شك، كيف لا وهو الذي بذل الغالي والنفيس في سبيل دعوته؛ فإذا أمرني وإياك بأمر، وجب تقديم أمره على كل مقدم، وقد قال ـ هو بأبي وأمي ـ: "إذا سألت فاسأل الله" (١).

(١) أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٤٠ وقال حديث حسن صحيح، وأحمد رقم ٢٥٣٧.

إن قلبك ليدمى حرقة ولوعة وأسى حين تسمع السؤال؛ ولكن لغير الله، والدعاء؛ ولكن لأصحاب القبور، والالتجاء؛ ولكن لشخص من البشر.

أخي الحبيب! ألا ترى تلك الجموع وقد حطت رحالها بباب البدوي أو المحضار أو الجيلاني أو الحسين سيد شباب أهل الجنة، ألا تراهم يتفيّؤون نسائم الرحمات، ويتلقون برد الرحمة والرضا، أتراهم على جادة أم عن الجادة نكصوا، وقد قال جدّ الحسين ﷺ: "إذا سألت فاسأل الله".

أتراهم سألوا الله أم سألوا غيره؟

أيها الحبيب! استمع معي إلى قول الله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة: ١٨٦)، هل تأملت لماذا هو قريب؟ ولماذا هو يجيب دعوة الداعي؟

ألأجلِ أن يُدعى غيره؟ أم لأجل أن يلتجأ إليه ويوحد في الدعاء؟

حكّم عقلك.

استمع إلى قوله تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (الرعد: ١٤).

أتظن أن الماء سيبلغ فاه؟

لا، والله!

أتحب أن يكون وصفك كما هو في آخر الآية؟ إني والله عليك مشفق.

استمع أيها الحبيب إلى هذه الآية: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ (الرعد: ١٥).

أترى أنه بعد هذه الآية يجوز السجود لغير الله؟

استمع للآية التي تليها: ﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ (الرعد: ١٦).

لا والله لا يستوي الأعمى والبصير.

أخي الكريم ! أسمعت هذه الآيات ؟

ألا تراها واضحة في صرامة صارمة في وضوح ؟ هل تحتاج بعد هذه الآيات إلى برهان ودليل؟ ومع هذا ها أنت تسمع من طرف قصي:

نادِ عليا مظهر العجائب تجده عونا لك في النوائب

وآخر تراه وقد التزم القضبان الحديدية لقبر نبينا محمد ﷺ، أو قبر السيدة زينب أوقبر البدوي وهو يبكي بكاء مرا وينشج نشيجا متقطعا يرجو ويخشى.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

فبالله على نفسك فلتبكِ، وعلى بؤسك فلتحزن، أيُدعى غير الله في أرض الله، استمع إلى كلام الإمام الصادق ـ عليه رحمة الله ـ وهو إمام من أئمة آل البيت: (فوالله مانحن إلا عبيد للذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله ما لنا عليه من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون ومقبورون ومنشورون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون ...) إلى آخر كلامه رحمه الله.

ألم تر أن الحق تلقاه أبلجا وأنك تلقى باطل القول لجلجا

فأين ذهب عقلك وأنت تدعو غير الله ؟

أين ذهبت بصيرتك ؟

أين ذهب بصرك ؟

أرأيت الآيات المحكمات ؟ أرأيت الكلمات النيرات ؟ ومع هذا إنك لتأسي وأنت تسمع بعض المضلين يستدل بما هو متشابه محرضا به على الشرك بالله من مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ (المائدة: ٣٥).

ويقولون: إن الوسيلة هي ما يتوسل به إلى الله، وهذا صحيح، ولكن هل مما يتوسل به ذوات بني آدم وقبورهم؟ إن الوسيلة هي السبب الذي يقربكم إليه ـ سبحانه ـ من فعل الخيرات والأعمال الصالحة.

إذ فليس مما يُتوسل به ذوات الصالحين وقبورهم، وإنما المراد بالتوسل في الآية التوسل بالعمل الصالح من إيمان وتوحيد ودعاء، ونحو ذلك.

استمع إلى هذه الآيات من سورة النمل، ثم تأمل تلك التعقيبات العجيبة آخر كل آية:

﴿أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ (النمل: ٦٠)

﴿أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ (النمل: ٦٠)

﴿أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (النمل: ٦١).

﴿أ إله مع الله قليلا ما تذكرون﴾ (النمل: ٦٢) .

﴿أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ (النمل: ٦٣)

﴿أ إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (النمل: ٦٤)

﴿فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين﴾ (الشعراء: ٢١٣).

﴿الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ (ق: ٢٦).

أرأيت صولة الحق؟ ألا تنظر إلى وضوح الحجة وقوتها؟ هذا هو دين رسول الله ﷺ، هذا هو دين أوليائه، هذا هو نهجهم، هذه هي عقيدتهم، فأين نحن منهم؟ أين نحن من تطبيق منهجهم؟

لقد آن للسماء أن تفتح أبوابا، وللجبال أن تسير سرابا، حين تسمع داعيا يقول: يا جيلاني، يا رفاعي، يا محضار!

واها لكم يا أولياء الله! فكم كُذب على الدين باسمكم، وكم افتري على الشريعة برفع شعار حبكم.

أيها الكريم! تأمل معي قول الله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ (الأعراف: ١٩٤) ماذا تفهم من هذه الآية؟ ما الذي تعقله منها؟ أتفهم منها دعاء الدسوقي عند المصائب؟

أم دعاء الحسين عند الكربات؟ أم اللجوء إلى المحضار عند المضائق؟

أين عقلك ؟

أين بصرك ؟

أين بصيرتك ؟

إن هذا كلام ربنا خالقنا الذي له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير، أتدري من هو الله ؟! استمع إليه وهو يقول: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ (يونس: ٣١)

ويقول تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ (المؤمنون: ٨٤ ــ ٨٩)

فتأمل تعقيبه: ﴿فأنى تسحرون﴾.

فكأن القوم باتوا مسحورين.

قد يمر بخاطرك ــ أثناء قراءتك للقرآن وصلاتك وصدقتك وبكائك على أولياء الله ومحبتك لهم، وزيارتك لهم ــ سؤال: أيكون كل هذا غير نافع لي عند الله ؟

وأقول: بلى، والله ! هو نافع لك وذخر لك عند الله، ولكن تأمل معي هذه الآية، يقول الله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (يوسف: ١٠٦).

أتدري ما معنى هذه الآية؟ معناها: أن كثيرا ممن يؤمن بالله وأنه خالقه ورازقه هو مع هذا مشرك وإن صلى وصام؛ لأنه جعل لله شريكا في عبادته ودعائه.

وقد يمر بخاطرك قضية أخرى وهي قول بعضهم: إننا لا نعبد هذه القبور ولا نستغيث بالحسين ولا نتوجه إلى البدوي ولا نستعين بالرفاعي إلا لأنهم عباد صالحون، قد عبدوا الله حق العبادة، ووحدوه حق التوحيد، فهم مخلصون في يقينهم وإيمانهم، وهم قريبون من ربهم، فنتلمّس قربهم من الله كي يقربونا منه، وهذا والله دخيلة شيطانية.

تأمل معي هذه الآية: ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ (الزمر: ٣).

كرّر النظر في الآية: أترى أن ثمة تطابقا بين حالين عافاني الله وإياك؟ أتدري ماذا يريد هؤلاء؟

إنهم يريدون القرب من الله ولكنهم ضلوا الطريق، وكم من مريد للخير لم يصبه، وتأمل نهاية الآية جيدا.

أخي الحبيب: أقرأت كتاب الله؟ هل حفظت شيئا منه؟

هل تدبّرته ؟ هل تفكرت في آياته ؟

هل أنت معرض عنه ؟ إلى متى تستمر هذه الغفلة ؟

هل أعددت للآخرة زادا ؟ كيف تحاجّ عن نفسك عند الله ؟

كيف تدفع عنها العذاب وقد سمعت هذه الآيات الباهرات التي تدلك على توحيده ؟

هل تأملت الأمم وهي جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ؟ هل تأملت الحشر والنشور ؟

هل تأملت الحساب والجزاء ؟

أرأيت أنك وحيد لا رفيق لك ولا صديق، لا أنيس معك ولا جليس إلا عملك الصالح: ﴿يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (عبس: ٣٤ ــ ٣٧)

وأخيرا أيها الكريم! إنني أبعثها إليك رسالة واضحة صريحة أرجو منك أن تتلقاها بعقل وبصيرة واعية.

إن الأئمة من آل البيت، وإن أولياء الله الصالحين أئمة لنا وهم متخلقون بكل خلق ودين وورع، ولكنهم عباد من عباد الله مخاطبون بمثل قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦) ليسوا أربابا، ولا يجوز دعاؤهم من دون الله.

أسأل الله أن يهديني وإياك سبل السلام، وصلى الله وسلم على محمد وآله.

❖ ❖ ❖